

## السيّدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) .. قدوة وأُسوة



القدوةُ اسْمَ مَنْ اقْتَدِيَ بِهِ، إِذَا فُعِّلَ مِثْلُ فَعْلِهِ تَأْسِيَّاً، وَفَلَانَ قَدْوَةُ، أَيْ يُقْتَدِيَ بِهِ. أَمّْا فِي مَعْنَى الْأُسْوَةِ، فَقَالُوا هِيَ كَالْقَدْوَةُ، وَهِيَ الْحَالَةُ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهَا فِي اتِّبَاعِ غَيْرِهِ. وَعَلَيْهِ، فَالاِقْتِدَاءُ وَالْتَّأْسِيُّ هُوَ التَّبَعِيَّةُ لِلْمُقْتَدِيِّ بِهِ وَالْتَّسْدِينُ بِسَدِّتِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فَعْلٍ. عُمُومًاً، وَهُوَ الْمَعْنَى الْاِصْلَاحِيُّ أَيْضًاً. فَالاِقْتِدَاءُ هُوَ طَلْبُ موافَقَةِ الْآخَرِ فِي فَعْلِهِ، وَاتِّبَاعُ شَخْصِيَّةٍ تَنْتَمِي إِلَى الْقِيمِ نَفْسَهَا الَّتِي يَؤْمِنُ بِهَا الْمُقْتَدِيُّ، وَعَادَةً مَا يَمْثُلُ شَخْصُ الْمُقْتَدِيِّ بِهِ قَدْرًاً مِنَ الْمَثَالِيَّةِ وَالرَّاقِيَّةِ وَالسُّمُوِّ عِنْدَ أَتَبَاعِهِ وَمَحْبِّيهِ. وَالْقَدْوَةُ تَنْطَوِيُّ فِي دَاخْلِهَا عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْحُبِّ وَالْإِعْجَابِ لِلَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْمُقْتَدِيَّ يَحْاولُ أَنْ يَطْبَقَ كُلَّ مَا يَسْتَطِعُ مِنْ أَقْوَالِ الْمُقْتَدِيِّ بِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَمَتَى وَجَدَ الْإِنْسَانُ كَمَالًاً مَعِيَّنًاً تَوْجِهَ نَحْوَهُ وَانْجَذَبَ إِلَيْهِ وَطَلَبَهُ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ التَّوْجِهَاتَ تَخْضُعَ عِنْدَ كُلِّ إِنْسَانٍ لِقَنَاعَاتِهِ وَرُؤُسَيْهِ الْخَاصَّةِ لِلْكَمَالِ، حَيْثُ يَخْتَلِفُ النَّاسُ فِي تَحْدِيدِ مَسْدَاقِ الْكَمَالِ الَّذِي يَمْبُونَ إِلَيْهِ.

وَالْإِنْسَانُ، مَتَى مَا وَجَدَ ذَلِكَ الْكَمَالَ مُتَجَسِّدًاً فِي شَخْصٍ مَعِيَّنٍ، مَالَ نَحْوَهُ مُبَاشِرَةً حَتَّى يَصِيرَ قَدْوَتَهُ الَّتِي يَتَأْسِيُ وَيَقْتَدِيُ بِهَا. فَالْقَدْوَةُ هِيَ ذَلِكَ الْمِيزَانُ الَّذِي يَقِيسُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ تَصْرِيْفَهُ، مُوضِحًاً لَهُ مَعَالِمَ الطَّرِيقِ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَيْهِ سُلُوكُهُ، وَمَا يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ فَعْلُهُ وَتَرْكُهُ. وَالْأَهْمَّ مِنْ ذَلِكَ كُلَّهُ، إِنَّ وُجُودَ الْقَدْوَةِ الْحَقَّةِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ يَتَبَيَّنُ لَهُ إِمْكَانِيَّةِ الْوُصُولِ إِلَى الْأَهْدَافِ الْعَالِيَّةِ، وَيَبْعَثُ فِي نَفْسِهِ أَمْلًاً بِأَنَّ هَنَاكَ مَمْكُورٌ استِطَاعَ الْوُصُولَ قَبْلَهُ، فَيُشَعلُ فِي قَلْبِهِ حَمَاسَةً تُدْفِعُهُ لِلْاسْتِمرَارِ دُومًاً وَعَدْمِ التَّوْفِيقِ، لِأَنَّ حَيَاةَ الْقَدْوَةِ تَمَثُلُ لَهُ النَّمُوذِجُ الْأَصْحَّ وَالْأَسْلَمُ لِيَجْعَلَ حَيَاَتَهُ وَفْقَهَا، وَتَشَكَّلَ مَيْزَانًاً لِكُلِّ أُمُّورِهِ وَشَؤُونِهِ.

إِنَّ مِنَ الْخَصَائِصِ الْهَامَّةِ فِي شَخْصِيَّةِ السَّيِّدَةِ فاطِمَةِ (عليها السلام) هِيَ شَخصِيَّتُهَا الْقِيَادِيَّةُ الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا، وَالَّتِي ظَهَرَتْ فِي حَرْكَتَهَا خَلَالَ حَيَاَتِهَا عُمُومًاً، لَقَدْ قَامَتْ فاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ (عليها السلام) بِدُورِ الْقَائِدِ الْحَقِيقِيِّ. هَذِهِ هِيَ فاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ (عليها السلام)، إِنَّهَا قَائِدَ بِكُلِّ مَعْنَى الْكَلْمَةِ، وَمِثْلُ رَسُولِ الْرَّسُولِ، وَمِثْلُ هَادِ لِعِلْمِ الْبَشَرِيَّةِ، فَقَدْ ظَهَرَتِ الزَّهْرَاءُ الطَّاهِرَةُ هَذِهِ الْبَنْتُ الشَّابَّةُ وَتَجْلَّتْ بِهِذِهِ الْحَدُودِ وَالْأَبعَادِ وَالْحَجْمِ، وَهَذِهِ هِيَ الْمَرْأَةُ فِي الْإِسْلَامِ... فاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ (عليها السلام) امْرَأَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ، امْرَأَةٌ فِي أَعْلَى مَرَابِّ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، أَيْ إِنَّهَا فِي حَدُودِ قَائِدٍ. لَكِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا الَّتِي هِيَ مِنْ حَيْثُ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَافِعِ وَالْحَدُودِ كَانَ يُمْكِنُهَا أَنْ تَكُونَ رَسُولًاً هَذِهِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا كَانَتْ أُمًاً وَكَانَتْ زَوْجَةً

وكانت ربة بيت. وقد ورد على لسان أصدق البشر وأكملهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ما يحدّد منزلتها من الله تعالى، ومنه أزها هبة إلهية، وحوراء إنسية، وممّا روي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: «يا فاطمة! ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، وسيدة نساء هذه الأمة، وسيدة نساء المؤمنين».. فنعم القدوة الصالحة التي تحتذى بها وخاصة وقد عرّفها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّها امرأة غير كل النساء، إنّها سيدة النساء لما تحمله من صفات فريدة وجليلة.

سطّرت السيدة فاطمة (عليها السلام) حياة مليئة بالعظمة والجلال مع قصر مدّتها، فلا تكاد تطّلع على موقف قامت به الزهراء (عليها السلام) دون أن تُدهشك عظمة نفسها ورفعه أخلاقها، فهي وإن عاشت حياة تشبه حياة الجميع من حيث أبعادها، فقد كانت بنتاً وزوجة وأمّاً ومباغة وكانت تقوم بالأعمال المنزلية... إلا أنها (عليها السلام) انفردت وتميّزت بتحويل تلك الحياة إلى مظهر لعظمة لا مثيل لها مبيّنة كيف يمكن لأيّ إنسان أن يتحوّل إلى عظيم في أبسط تفاصيل حياته وفي أطرافها، فهي التي لم تقبل أن تقدم ثوبها القديم لسائلة جاءتها، بل آثرتها على نفسها وأعطيتها ثوب عرسها الجديد الذي كان هدية من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويسأل الإمام علي (عليه السلام) رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيقول: «يا رسول الله! أيُّ أهلك أحب إليك؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): فاطمة بنت محمد». ومن الواضح أنّ ما ورد عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس من باب العاطفة، والعلاقة الرحمية الخامسة، بقدر ما هو توجيه للأمة وتعريفها بالمقام الخاص للسيدة الزهراء (عليها السلام) عند الله تعالى، ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والدور المُلقَى على عاتقها خلال حياة أبيها، والوظيفة التي ينبغي أن تقوم بها بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم). وتكبر فاطمة وتبشّر، ويشبّ معها حبّ أبيها لها، ويزداد حنانه عليها، وتبادله فاطمة هذا الحبّ، وتملاً قلبه بالعاطفة والرعاية فيسمّيها «أمّ أبيها».

«أمّ أبيها» كنية ما أعظمها! فهي تعبر عن عمق العلاقة الروحية بين المانح العظيم المقدّس والممنوعة الطاهرة المطهّرة بحكم التنزيه عن كلّ رجس ودنس، هذه الكنية هناف ملأ الكون بصداه، ونداء لكلّ جيل يتدبّر معناه، وتنبيه للأمة بما ينبغي لها من توقير البٰتول وحفظ مقامها الشامخ في قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). وكانت الزهراء (عليها السلام)، أحب الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهي بهجة قلبه وبضعة منه، يغضب لغضبها، ويرضى لرضها، ويفضّب ما يغضبها، ويسطّه ما يبسطها، ويؤذيه ما يؤذيها، ويسره ما يسرّها . السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) قدوة وأُسوة تربوية واجتماعية وجهادية بكلّ ما للكلمة من معنى. إنّ السيدة فاطمة الزهراء (عليها السلام) مارست أدواراً أُسرية واجتماعية وجهادية وسياسية استحقت أن تُمنح لقب قدوة يُقتدى بها، وكانت كلّ تلك الأبعاد حاضرة في حياتها حيث تجلّت عظمتها الطاهرية من خلال تلك الأدوار، فهي التي جسدت إرادة الحقّ في الدنيا بكلّ أفعالها بدءاً من حياتها الأُسريةوصولاً إلى حياتها الجهادية.